مرة أخرى

وأعود.. محاولا أن أتجول فى حديقة النضال اليسارى المليئة بالورود. وورود عديدة تخطف بصرى، تأمرنى أن أتوقف .. أتأمل .. أبحث .. أفتش عن المعلومات، ثم أكتب.

فاليسار.. ذلك الكيان الفكرى الممتد الجذور، فى نطاق التربة المصرية، هذا الكيان المصرى المذاق، العلمى التوجه، العنيد، العتيد القادر دوما على الدوس على الأشواك الصلبة، وعلى أن ينزف من أجل الوطن والشعب والفكرة عرقا ودما وتضحيات بغير حدود. يتخيل أعداءه الذين يوجهون له كل اسلحة الخصومة الشرسة ابتداء من الادعاءات والاكاذيب إلى السجن والتعذيب، ثم إلى القتل دون جدوى أن بإمكانهم إسكات صوته ذلك أن هذا اليسار لم يكن أبدتً نبتا يطفو على سطح مصر، ولا مجرد لون يحاول أن يصبغ الوجه المصرى. ثم لا يلبث أن يزول، بل هو وشم أبدى الخلود على الجسد المصرى. يتألق أو يخبو وقد يخيل للبعض أنه ينطفئ، لكنه لا يلبث أن يستمد من عزيمته صلابة وقدرة على التوهج من جديد.

وفى كثير من الأحزاب أوالتيارات السياسية والفكرية يمتلك زعيم أو اثنين ساحة العرض. ويتمحور حوله كل قول. بحيث يتبدى وكأنه القائل الوحيد والفاعل الأول. وإذ يذكر إسمه يكون ذكراً للحزب. وإذ يذكر الحزب يكون سبيلا لتتويج الزعيم. إلا اليسار المصرى. فالبناء اليسارى فى ساحة الوطن قام على أكتاف مئات بل آلاف من المناضلين.. مفكرين- مثقفين- عمال- فلاحين- نساء أسهموا قولا وفعلا ودفعوا ثمن انتمائهم للعقيدة اليسارية تضحيات بلا حدود، عذاب وتعذيب وسجن واعتقال، وإنكار واستنكار. لكنهم مضوا فى طريق نضال لا ولم يتوقف.

وإذا كان تاريخ النضال الحزبى يمكن تسطيره عبر الإمساك بخيط وحيد هو القائد أو المفكر أو الشهيد فإن تاريخنا هو حديقة متسعة الألوان متعددة النسمات والبسمات.

يختلط فيها الجميع مع الجميع. ولا يمكنك امتلاك معرفتها بغير الانغماس فى ساحتها مستمتعا بتتبع ما كان. معانيا من شوك شديد القسوة أحاط بكل وردة من ورود.

ولعلى عندما جازفت بالتوجه نحو كتابة تاريخ اليسار المصرى لم أكن أدرك أو أتخيل صعوبة المرتقى. أثنان وعشرون عاما عشتها فى رحاب تاريخ مفعم بالمحبة للوطن والشعب. والقدرة على استنبات المذاق المصرى الأصيل فى ثمار الفكر اليسارى، والاستعداد الدائم لتقديم تضحيات بلا حصر، تشريد ومطاردة وسجن واعتقال وتعذيب وقتل. لكن هؤلاء الرجال يواصلون ويصممون ربما دون أن يتعرفوا على مقولة تولستوى «أنهم يتجاهلونك ثم يسخرون منك ثم يطاردونك ثم يسجنوك وقد يقتلونك ثم تنتصر». لكنهم سيدات ورجال من نبت التربة المصرية. تلك التربة التى اخصبت ومنذ قرون عديدة عبقرية العشق للمكان والناس ومعها عبقرية الخلود الأبدى.

أنهم ذلك النبت الذى امتزج عرقه ودمه وجهده وعذابه مع ذلك الجرانيت الذى صاغ منه آباؤنا خلودهم وهم ينقشون باتقان يفوق الخيال قصص الخلود الابدى للصراع المصرى من أجل الحق والعدل. ولعل الكثيرين من هؤلاء الرجال الذين صاغوا ارادتهم وصمودهم من جرانيت الفراعنة لم يقرأوا نصوص الأهرام، لكنهم فعلوها ممتثلين لإرادة الصمود..

إنهم يقولون عنك يا أوزوريس
ولو أنك ترحل إلا أنك تعود ثانية
ولو أنك تنام إلا انك تستيقظ ثانية
ولو أنك تموت إلا انك تبعث مرة أخرى
قف
حتى يمكنك أن تسمع ما فعله حوريس لأجلك
أن حوريس يجمع لك اضلاعك
لكى يلم شمل اجزائك دون نقص فيك
يا أوزوريس
إنهض
أن حوريس يحبك.

أنها اسطورة الصراع الابدى بين الخير والشر، واسطورة الانتصار الحتمى للخير.

ولست اعتقد أن بالإمكان فهم أسرار هذا الصمود الدائم والمستمر لليساريين المصريين، وطلاسم اصرارهم على تحمل أى شىء وكل شىء فى سبيل دفاعهم عن المبدأ الذى يشحن ارادتهم بموجات من الإرادة التى لا تلين، دون أن تتأمل النقوش الجرانيتية التى تمثل وشما غير مرئى على ضمائرهم وقلوبهم.

فهكذا خلقوا. وهكذا بدأوا. وهكذا استمروا . جيلا بعد جيل استمروا دون ملل ولا خوف ولا تردد ولا تراجع. ولا سعى نحو أى كسب شخصى. ونتأمل هذه الاسطورة شعرا

يحكيك من شهد الوقيعة أننى

أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ومدجج يخشى الكماة نزاله

لا ممعن هربا ومستسلم

نعم. هم هكذا دوما..

أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وأيضا..

لا ممعن هربا ولا مستسلم

* * *

ولقد كان بإمكانى، وربما كانت هذه خطتى الأولى، أن اكتفى بالبحث فى تاريخ الحركة بموجاتها المتتالية فإذا بها تجتاحنى وتستدرجنى إلى هديرها فى تدافع لا يهدأ ولا يتوقف، موجات لا تعرف التردد. بل تمضى لترهق الباحث وتفرض عليه أن يمضى معها، يلهث مع أحداثها وتدافعاتها، ليسجل إنجازاتها، وانتصاراتها أو انكساراتها. وأيضا وهذا هو الأخطر .. انقساماتها.

.. ولعلى أنحنى بالكتابة لأسجل هنا أن خطر الانقسامية كان وباء ولم يزل، ولعل التقسيم لم يكن بذاته كفعل، خطيرا، وإنما الأخطر هو اللجاجة فى الخصومة، ونسيان العدو نظاما وحكما وأمنا ، والتركيز فى الخصومة والهجوم من بعض اليساريين ضد يساريين آخرين لتلتهب مشاعر من المفترض أن توجه التهابها إلى العدو، ولينشغل البعض بالبعض بدلا من الانشغال بالآخر ويتجلى فى الأفق قول شاعر ربما عانى من ذات المأساة.

إحذر عدوك مرة

واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق

فكان أعلم بالمضره

.. لكننى لا أدعو إلى الحذر من الصديق حتى ذلك الذى انقلب إلى مناكف أو مكايد أو مهاجم فلا مخرج أمام اليساريين سوى توحدهم رغم اختلافاتهم ورغم تناقضاتهم . إذ يتعين عليهم أن يدربوا أنفسهم على تقبل الآخر اليسارى، وتقبل التعامل معه والتعاون والعمل المشترك معا، دون نسيان أسباب الخلاف فأنا ازعم أن أسباب الاختلاف مهما تراكمت سوف تزول أو تتناقص مع العمل المشترك وعبره. إذ نتواجه معا ضد الذى يناهضنا أو يعادينا، أى يناهض ويعادى افكارنا المشتركة.

أما الخصوم وهم كثيرون ويتغيرون بتغير الزمان فهم دوما موجودون. وأكثرهم بغاة ظالمون يتصيدون أى خطأ وأى قول من صديق مفترض نسى الصداقة والالتزام الفكرى وتطاول بما لا يليق. لكن الخصوم يبقون خصوما حتى دون إيعاز من أحد، فدعاة الظلم الاجتماعى تتولد فيهم بذرة العداء لنا فى لحظة مولد الانتماء إلى معسكر اعد ء الشعب وناهبى ثرواته واستنزاف دماء فقرائه. وكذلك دعاة الظلامية يولدون وهم فى عداء لما نقول به من استنارة وعقلانية. فهم يعرفون تماما خطر ما ندعو إليه على ما يدعون هم إليه ونحن نتقبل ذلك مدركين أن هذه طبائع الأمور، فلو لم يهاجموننا أو ينكروننا أو يقومون بالتعتيم على ما نفعل أو ما نقول، لكان ثمة خلل فى أدائنا إستمتع به خصومنا. نعرف ذلك ونتقبله ونصبر عليه.

اصبر على غيظ الحسود فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل بعضها أن لم تجد ما تأكله

نصبر عليه مدركين أنهم بمناصبتنا العداء إنما يؤكدون لنا صحة ما نخوضه من صراع وصدق ما نتجه اليه من خطى.

ولقد يتقلب البعض معنا ثم ضدنا حسب إتجاهات الريح، وحسب الحاجة إلى مزيد من تملق الخصوم حكاما كانوا أوخصوما سياسيين فإذ نعتاد على بعض ابتسامات باهتة من البعض وخاصة الإعلاميين منهم، فإنها لا تلبث مع أول إتجاه نحو تقلب الموج أن تنقلب

ضدنا بضراوة تحاول أن تمحو آثار ابتسامة سابقة، فالبعض من مثقفى زماننا يمتلكون حاسة شديدة الحساسية فيسبقون هجوم السادة بهجوم منهم. ونحن نعرف ذلك ونتوقعه حتى وهم فى أوج محاولة التقرب منا. وندرك أن شيمة البعض أن ينقلب ويتقلب وفق الهوى والمصلحة.

لا تأسفن على غدر اللئام فطالما

رقصت على جثث الأسود كلاب

* * *

ولم يكن فى خطتى الأولى أن أتوقف أمام سيرة اشخاص بذاتهم. فقط أردت أن أصوغ رؤيتى للحدث التاريخى ، وأن أنقذ مفرداته من الضياع بفعل الزمن أو بفعل التعتيم المتعمد. لكننى صادفت وأنا منغمس فى بحث مضن ومصادر كانت خافية أو مخفاة عن عمد متعمد.

فعلى سبيل المثال كانت تعليمات قديمة إلى حد الصدأ لدى موظفى دار الكتب تقضى بمنع مجموعات الصحف اليسارية العلنية من الخروج من مخابئها وتطلب الأمر تحايلات وتآمرات ورشاوى كى أتمكن وبشكل سرى من مطالعة مجموعات صحف مثل الحساب- الجماهير- الملايين- الواجب- الكاتب- الغد وعديد غيرها ظلت مخفاة فى مخازن دار الكتب وممنوعة من التداول. وكذلك الأمر بالنسبة لمجموعات ملفات قضايا الحركة الشيوعية وأهمها موجودة بالمتحف القضائى فى دار القضاء العالى لكن الإطلاع عليها ظل ممنوعا، وربما جرى انكار وجودها أصلا، ولم يكن ممكنا الاطلاع عليها إلا بالاستعانة بعدد من طلابى فى جامعات أجنبية استعانوا بخطابات رسمية من جامعاتهم ومن ثم من سفاراتهم. وهكذا امكن اختراق حاجز ظل عصيا على الاختراق.

وعبر كل ذلك اكتشفت رموزا ذكرتنى براوية بيراندييللو «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» والتى تتحدث عن شخصيات ظلت تطارده لتفرض عليه أن يكتب عنها، أو مسرحية أورين شو «ثورة الموتى» حين نهض ضحايا أحد الحروب عبر سطور المسرحية رافضين أن يدفنوا وأن تدفن معهم حكاياتهم ورأيهم فى هذه الحرب، ومطالبين بحقهم فى التعبير، ولعل من حقى على القارئ أن أقول له بصدق أن كثيرا من رموز اليسار المصرى ظلوا يطاردوننى فى أحلامى وحتى فى صحوى فمحمد دويدار مثلا ظلت رحلته سائرا على

قدميه مقيدا بالحبال مربوطا فى حصان لجندى تركى يقتاده من اسطنبول حتى الحدود السورية، لأن القاضى امر بابعاده بعد أن اكتشفوا جواز سفره المزور، وقال فى حكمه بتغريمه أجر سفره هو وجنديين مع أجر عودة الجنديين فلما لم يجدوا معه مالا . كانت هذه الرحلة التى استغرقت أشهرا من السير على الاقدام يتغير خلالها الجندى والحصان وهو سائر على قدميه. هذا المناضل اليسارى المصرى عطشجى السكة الحديد الذى عاد رغم ذلك إلى مصر ليواصل نضالا مستمرا بلا تردد، ظل يطاردنى هو وعشرات غيره فى صحوى ومنامى ولم أجد سبيلا سوى الرضوخ لإرادتهم. والحقيقة أن قصة بيرانديللو لم تكن وحدها وإنما كان هناك ضميرى فهؤلاء الرجال والنساء هم المكون الأساسى للصورة العامة لليسار المصرى. انهم قطع السيراميك الرائعة الألوان والاشكال التى تكونت منها جدارية اليسار المصرى، ولم أستطع أن أتجاهلهم، ولم يكن بالإمكان الاستطراد فى ذكر نضالاتهم وحشوها فى متن الكتابة عن تاريخ الحركة ونضالاتها وعثراتها. ومن هنا كانت الحتمية فى كتابة مستقلة عن تاريخ هؤلاء المناضلين كل منهم على حدة ليس لأنهم يستحقون، ولا لأنهم يقدمون نماذج فريدة من التضحية والاصرار فى سبيل الوطن والمبدأ، وإنما لأنه بدون الحديث عنهم ستظل الجدارية الاسطورية لليسار المصرى ناقصة.

وهكذا صدر المجلد الأول من «مناضلون يساريون» (٦٤ مناضلا- ٤٦٢ صفحة) ثم يأتى هذا المجلد وحتى معه لا أكون قد أتممت الوفاء بما عاهدت نفسى عليه، بأن أظل طالما ظللت قادرا، ساعيا نحو استكمال سيرة ومسيرة هؤلاء الرجال، ليس فقط لنزهو بها وليتباهى بها أبناء الاجيال القادمة من اليسار المصرى وإنما لتكون درسا لنا ولهم ولكل المصريين.

ولا أملك بعد ذلك إلا أن اتطلع إلى أمد يمكننى من كتابة المجلد الثالث.. هذا أن كان هناك أمد.

رفعت السعيد

القاهرة مارس ٢٠١٢